الفصل السابع

إتجاه الظاهراتية (الفينومينولوجية)

1 ـ المفهوم العام للنظرية الظاهراتية وتطورها.

2 ـ إدموند هوسرل: الفينومينولوجية المثالية

3 ـ ألفرد شوتز: فينومينولوجية الحياة الاجتماعية.

4 ـ خلاصة ونتائج.

1 ـ المفهوم العام للنظرية الظاهراتية وتطورها

ظهرت هذه النظرية كرد فعل للنظريات الاجتماعية التقليدية، وكنتيجة منطقية للتحولات الاجتماعية والفكرية والبنائية التي اجتاحت المجتمعات الفرنسية في الستينات، حيث شهدت هذه الفترة إحياء التراث الفلسفي للفينومينولوجيا التقليدية، وتعميق مفاهيم جديدة تلبي الواقع الجديد من خلال نظرية اجتماعية تعطي فيه لحرية الفرد وأفعاله القصدية واللاقصدية مكاناً بارزاً، وتكون معبّرة عن أفكار جيل الستينات في أوربا وأمريكا، واتجاهاته الفكرية نحو الفلسفة، وخاصة الفلسفة الوجودية ومضامينها الجديدة القريبة من عقله وطموحاته نحو التغيير.

ومثلما تمّ نقد النظريات الاجتماعية ذات المنهج الوضعي والأمبريقي من قبل علماء الاجتماع المعاصرين، باعتبارها نظريات لم تستوعب الواقع الاجتماعي استيعاباً عميقاً، فإن هذه البدائل النظرية التي قدمت من خلال نظرية الظاهراتية والتفاعلية الرمزية شهدت هي الأخرى ردود فعل سلبية وإيجابية معاً. فمنهم من يعتقد بأن هذه البدائل قد قدمت تصوراً عميقاً وجديداً لفهم الواقع الاجتماعي، بينما يرى البعض بأنها مسميات جديدة لممارسات منهجيّة قديمة.

وعموماً، فإن النظرية الظاهراتية في فهمها للواقع الاجتماعي، وتأكيدها على وجود فوارق كبيرة بين الظواهر الطبيعية والظواهر الاجتماعيّة، إنما تعكس حقيقة اتجاهها النقدي للنظرية الوضعيّة في عدم قدرتها على تحليل الواقع الاجتماعي بموضوعيّة.

يمكن إرجاع الأصول الفكرية لنظرية الظاهريّة إلى فلسفة الظواهر التي

قدمها العالم أدموند هوسرل وريادته لها. كما يعود له الفضل لاستعماله مصطلح «الفينومينولوجيّة»[1]. وتبنيه لفكرة دراسة الإنسان كإنسان من خلال التعمق بنفسيته وبتراكماته الاجتماعية بدلاً من النظر له كمادة قابلة لتحليل الرقمي والإحصائي. وهو بهذا يخالف دوركهايم الذي يؤكد على ضرورة دراسة الظواهر الاجتماعية على أنها أشياء.

وبعد هوسرل، جاء العالم ألفرد شوتز، الذي يعد الرافد الفكري الثاني بعده، حيث اشتقت منه البدائل الفينومينولوجية المعاصرة، وبدأ بنقد علم الاجتماع الصوري عند ماكس ڤيبر، خاصة في تصور ڤيبر لعلم الاجتماع باعتباره العلم الذي يتوصل إلى الفهم التأويلي للفعل الاجتماعي من أجل التواصل إلى تفسير سببي لمجراه وآثاره، واعتبار الفعل يكتسب صفة اجتماعية من خلال المعنى الذاتي الذي يضفيه عليه الأفراد، حيث يعتقد شوتز بأن ڤيبر لم يكن عميقاً لكي يلمس أساس المعرفة الاجتماعيّة[2]. وهذا لا يعني بأن النظرية الظاهراتيّة لم تستفد من أعمال ڤيبر، فقد كانت الكثير من القضايا التي طرحها ڤيبر موضع اهتمام هذه النظرية خاصة الاهتمام بالمعنى الذاتي لأفعال الأفراد، وصياغة الأنماط المثالية.

ويمكن اعتبار العالمين بيتر بيرجر وتوماس لكمان أبرز من أحيى الفينومينولوجية في الستينات بعد العالم شوتز، حيث اعتمد على فكرة شوتز عن الذاتية الداخلية. فالعلاقات الاجتماعيّة الأولية ـ كما تنعكس في الذاتية الداخلية للأفراد ـ هي أساس الواقع الاجتماعي، تلك الذاتية التي تكتسب طابعاً عاماً من خلال اللغة. وهذا يعني بأن مهمة علم الاجتماع «المعرفي»

---

(1) أنظر للتفاصيل بخصوص المصطلح ومفهومه: د. قباري اسماعيل، علم الاجتماع الألماني (القاهرة: الهيئة المصرية للتأليف والنشر 1971).

(2) د. أحمد زايد، علم الاجتماع بين الإتجاهات الكلاسيكية والمعاصرة، مصدر سابق، ص 391.

تحليل التركيب الاجتماعي للواقع[1].

القضايا الرئيسية للنظرية الظاهراتية

يمكن إبراز أهم الموضوعات التي تتناولها النظرية الاجتماعية الظاهراتية، وهي كالآتي:

1 ـ تدرس الظاهراتية كل ما هو في قالب الشعور، مع القيام بجهد أو قصد نحو سبر غور باطن الشعور ومضمونه؛ حيث يضع الزمان الاجتماعي التاريخي في قوالب الشعور بعضاً من تجاربه الحيّة فيمتلىء بمحتوى ثقافي وحضاري[2].

2 ـ مادة التحليل الفينومينولوجي هي خبرة الحياة اليوميّة، وعالم الحياة المعطى كما يتجسد من خلال تركيبات من المعرفة التي يتم تكوينها ونقلها اجتماعياً. فعلم الاجتماع الفينومينولوجي لا يقتصر في دراسته على مضمون هذه التركيبات، ولكن مجال اهتمامه يمتد إلى العمليات التي من خلالها تتكون وتنتقل، وتستقبل مثل هذه التركيبات، ودور الأبنية التنظيمية والنظامية في تشكيل مثل هذه العمليات.

3 ـ ينظر علم الاجتماع الفينومينولوجي للإنسان على أنه يمتلك المبادأة في الفعل الاجتماعي؛ فالفاعل يقف في علاقة جدليّة مع الواقع. فهو يعدّ خالق هذا الواقع ونتاجاً له في ذات الوقت.

4 ـ يرتكز علم الاجتماع الفينومينولوجي على مبادىء النزعة الفردية

---

(1) المصدر السابق، ص 399.

(2) د. قباري إسماعيل، تيارات معاصرة في علم الاجتماع (الإسكندرية: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1979) ص 103 .

الميثودولوجية والاتجاه النفسي. فالواقع والصدق والرشد يتحدد في ضوء المعاني التي يضيفها عليها الفرد في مواقفه وأفعاله. ويترتب على ذلك أن تعتمد التفسيرات السوسيولوجية على كفاءة هذه التفسيرات على مستوى التأويل الذاتي لخبرة الفرد العادية[1].

5 - يسعى المنهج الفينومينولوجي الذي يعرف باسم «التجريد الفكري» نحو المفاهيم المغلقة التي لا يمكن ردها إلى مفاهيم أخرى. ويمكن إدراك هذه المفاهيم خلال تأمل الحياة الاجتماعية، أي عن طريق استيضاح طبيعتها الخاصة المميزة من خلال التأمل الداخلي للمراحل المختلفة أو حتى لمرحلة واحدة قد تكون تخيليّة. ومن العمليات المطلوبة من الباحث الفينومينولوجي مقارنة المفاهيم الأساسيّة المستخلصة على هذا النحو بمفاهيم أخرى[2].

وخلاصة القول، كما يؤكد تيماشيف، بأن المدرسة الظاهرتية قدمت آراء هامة بخصوص العلاقة بين المجتمع والفرد وهي: الإستمرار المستقل للمجتمع، والإستقلال النسبي للسلوك الجماعي عن أفعال ونوايا أعضاء الجماعة، والخطر الكامن بتدهور المجتمع. وكوحدة للدراسة الاجتماعية يتم عزل الكل أو الجماعة، وليس الفاعل الفرد أو التفاعل الاجتماعي. أما العوامل المحدّدة للنظام الاجتماعي والتغيير الاجتماعي فإنها تقع خارج اهتمام هذه المدرسة[3].

---

(1) د. أحمد زايد، مصدر سابق، ص 393.

(2) نيقولا تيماشيف، نظرية علم الاجتماع - طبيعتها وتطورها (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية 1995) ص 435.

(3) المصدر السابق ص 439.

2 ـ إدموند هوسرل
الفينومينولوجيّة المثاليّة

ولد عام 1859، وهو أحد الفلاسفة الألمان المعاصرين الذي يعود له الفضل بتأسيس الإتجاه الفينومينولوجي، من منطلق أساسي وهو حاجة المجتمع إلى الفلسفة. وقد استحدث مصطلح «الفينومينولوجيا» لأول مرة. وتتلمذ على يد «فرانز برنتانو (1838 ـ 1917) مؤسس النزعة السيكولوجية التي تقول بأن علم النفس هو العلم الأساسي الذي تقوم عليه جميع العلوم الأخرى بما فيها المنطق ونظرية المعرفة والأخلاق. كما تتلمذ أيضاً على كارل شتوف (1848 ـ 1936) الذي أقام المنطق ونظرية المعرفة على علم النفس دون أن يتورط في النزعة السيكولوجيّة[1].

القضايا الرئيسية لنظرية هوسرل الفينومينولوجيّة

تطورت الفينومينولوجيا كاتجاه فكري إنساني من خلال كتابات إدموند هوسرل (1859 ـ 1938) خلال العقود الثلاثة الأولى من القرن العشرين، وهي كتابات مهمة أوضحت أهم قضايا ومشكلات الفينومينولوجيا. كما كانت تشكل كتاباته مدخلاً للحوار مع الفلاسفة الوجوديين الذي حاولوا استخدام بعض أفكاره في مجال الفلسفة الوجودية. وإذا كان بالإمكان وصف

(1) محمد زيدان، مناهج البحث الاجتماعي (بيروت: جامعة بيروت العربية 1974) ص65.

الفينومينولوجيا الوجودية بالواقعية. ويلاحظ بأن الفينومينولوجين يميلون إلى استخدام مصطلح الظاهرة (الذي يمثل اشتقاق الفينومينولوجيا) للإشارة إلى كل ما هو واضح وثابت في الإدراك أو الوعي بالشعور الضروري[1].

ومن أبرز أفكار نظريته هي:

1 ـ الظواهر عند هوسرل هي خبرات قصدية موجهة للأفعال العقلية، حيث أن الباحث يصف الظواهر كما تبدو في إدراكه وشعوره أو بعبارة أخرى يصف «ماهيات» الظواهر من خلال إدراكه وشعوره أو خبرته القصدية، بل إنه يتعدى مرحلة التفسير. وهذا يخالف فكرة العلماء الطبيعيين في دراستهم للظواهر، القائم على الفصل بين العالم الخارجي والذات التجريبية[2].

2 ـ الفينومينولوجيا تسعى إلى وصف ظواهر الوعي، وتوضيح كيفية تشكلها. وهذا ما جعله ينتقد النزعة السايكولوجية، ذاهباً إلى أن العلوم التي تدرس الإنسان (علوم النفس والاجتماع والتاريخ) تحاول تفسير الخبرات الإنسانية من خلال مجموعة من الأسباب الخارجية والداخلية وهي أسباب تعبّر عن وجهة نظر الباحثين أكثر مما تعبّر عن وجهة نظر المبحوثين.

3 ـ الفينومينولوجيا تسعى إلى دراسة أشكال الخبرات الواعية التي طالما سلم بها الفلاسفة والعلماء واعتمدوا عليها في إقامة فلسفاتهم وصياغة نظرياتهم، أيّ أن الفينومينولوجيا تحاول الوصول إلى أعماق الخبرات الإنسانية باستخدام أسلوب منهجي محدد وهو «الرد الفينومينولوجي»

---

(1) د. السيد الحسيني، نحو نظرية اجتماعية نقدية، (بيروت: دار النهضة العربية للطباعة والنشر، 1985). ص 247 ـ 248.

(2) محمود زيدان، مناهج البحث الفلسفي، مصدر سابق، ص 66 ـ 69.

بقصد وصف الخبرات الخالصة.

4 ـ الفينومينولوجيا، برأي هوسرل، هي محاولة فلسفية لوصف الأشياء والظواهر والوعي. بمعنىً آخر هي جهد موجه لوصف الظواهر كما ترى لنا من خلال وعينا بها، وبذلك يصبح الوعي وسيلة وهدفاً للفينومينولوجيا[1].

5 ـ طرح هوسرل قضية الاختزال الفينومينولوجي، والذي من خلاله يتخلى الوعي والشعور عن كل الأفكار المرتبطة بالعالم الخارجي، وما يحتويه من أشياء وموضوعات، ليصبح وعياً خالصاً وشعوراً بحتاً. وبهذه الطريقة يدع الباحث المجتمع والثقافة والتاريخ جانباً، أي يضعهم بين قوسين لتصبح المعرفة نتاجاً «العمدية» أو «قصدية» للوعي الخالص، حيث يطلق على هذه العملية إسم «تعليق الحكم» أي إبطال الاعتقاد بموضوعات الخبرة بحيث لا يتبقى في النهاية إلاّ «الذات المتسامية» أو الوعي الخاص الحر لكي يكتشف معناه الحقيقي أو جوهره[2].

---

(1) د. السيد الحسيني، مصدر سابق، ص 248 ـ 250.

(2) آلان سوينجورد، تاريخ النظرية في علم الاجتماع، (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية)، ص 338.

3 ـ ألفرد شوتز
فينومينولوجية الحياة الاجتماعية

ولد في فيينا سنة 1899م وتوفي سنة 1959م في نيويورك. ودرس في جامعة فيينا بالنمسا. وحصل على إجازة في القانون، واشتغل موظفاً في المصارف الماليّة، ولم يكن أكاديمياً حتى عام 1920. وقد هاجر شوتز إلى باريس وذلك عندما احتل النازيون النمسا سنة 1938، وبقي سنة واحدة، ثم هاجر بعدها إلى الولايات المتحدة الأمريكية، والتحق بالأكاديميّة الجديدة للبحوث الاجتماعية. وقد كوّن مع «فاريز» الجمعية الظاهراتيّة الدوليّة. وكان عضواً في مجلس البحوث الفلسفية والظاهراتية منذ تأسيسه سنة 1941م.

وقد تأثر شوتز بماكس ڤيبر ونظريته في «الفعل الاجتماعي» و«النموذج الأمثل»، وكذلك بأدموند هوسرل وهنري برجسون. وكان هذا التأثر سبباً لنشر كتابه عن (علم الظواهر للعمل الاجتماعي في الولايات المتحدة الأمريكية عام 1932 الذي لم يترجم إلى الإنكليزية حتى عام 1967، أيّ تأخرت ترجمته 35 عاماً. وفي عام 1943 كتب في النظرية والبحث الاجتماعي. كما له مؤلفات عديدة أبرزها «مشكلة الواقعيّة الاجتماعيّة» و«دراسات في النظرية الاجتماعيّة» و«دراسات في الفلسفة الظاهراتية»[1].

---

(1) أخذت هذه السيرة لحياة شوتز من: د. علي الحوات، النظرية الاجتماعية، مصدر سابق، ص 213. ود. معن خليل عمر، نظريات معاصرة في علم الاجتماع، مصدر سابق، ص 286.

القضايا الرئيسية لنظرية شوتز الفينومينولوجية

إذا كان هوسرل قد أرسى دعائم الفينومينولوجيا كمدخل فلسفي لدراسة الخبرات الخاصة، فإن شوتز هو الذي طرح الإمكانات السوسيولوجية الهائلة التي تنطوي الفينومينولوجيا في دراسة الواقع الاجتماعي.

ومن خلال مؤلفه «فينومينولوجيا العالم الاجتماعي» حاول تفسير تشكّل الظاهرة الاجتماعيّة من خلال الناس «العاديين» و«الخبراء». والهدف من ذلك هو توضيح مدى الثراء الفكري الذي يمكن أن تنطوي عليه محاولات «التنظير» بالاعتماد على «الخبرات الشائعة» التي تزخر بها الحياة اليوميّة، فضلاً عن محاولات التوفيق المختلفة التي تتم من خلال الفكر الفلسفي والاجتماعي. وقد درس شوتز العديد من القضايا: الواقع الاجتماعي، مجالات المعنى الاجتماعي، الحتميّة، التشيؤ، المعرفة، وعلم الاجتماع الأمبيريقي. وكان الافتراض الأساسي الذي تنهض عليه هذه القضايا هو أن «الحياة اليوميّة» تمثّل نمطاً من التنظيم، وأن العالم المحسوس والخبرة الحياتيّة تمثلان الموضوع الأساسي لعلم الاجتماع[1].

وتقوم نظرية شوتز على المنطق التفاعلي الذي يقع بين فاعلين ـ على الأقل ـ هدفها تشريح النسيج التفاعلي بينهما، لتتعرف على نشأته وتطوره، مركزة على المعاني الذاتية ورؤية المتفاعلين ومشاعرهما وتفكيرهما. ولذلك فإنها قامت على عدّة افتراضات أهمها:

1 ـ إفترضت بداهة أن عقل الفاعل ليس مجرداً بل مكتسباً اجتماعياً حصل

(1) د. السيد الحسيني ، نحو نظرية اجتماعية نقدية، مصدر سابق، ص 250 ـ 251.

عليها من محيطه الاجتماعي، تتم صياغته بشكل ينسجم مع المحيط الذي يعيش فيه.

2 - وعند تعايش الفاعل مع محيطه الاجتماعي وتفاعله مع الفواعل الآخرين يبدأ باكتساب خبرات اجتماعيّة حول عالمه المحيطي، والفواعل التي تعيش فيه.

3 - لا يفرّط الفاعل بهذه المكتسبات الاجتماعيّة لأنها جمعت من قبله من واقعها، ولذلك يحرص على تخزينها في ذاكرته لتكون باكورة معارفه الاجتماعية.

4 - يستخدم الفاعل هذه المكتسبات المعرفية المخزونة في ذاكرته عند تعامله اليومي مع الناس، أي يستخدم الخبرات الماضوية لمواجهة الفواعل وظواهر حياتهم ومشاكلهم لتمنحه رؤى جديدة حول علائق اجتماعية مستشرفة[1].

وبهذا المعنى فإن الظاهراتية عند شوتز، تركز على مفهومها الأكبر «التخلّل الذاتي» أو «الذوات المتداخلة» التي تعني الإجابات على التساؤلات الآتية: كيف نعرف أفكار الآخرين؟ وكيف نعرف أنفسنا؟ وكيف يتم تبادل رؤانا وإدراكاتنا مع الآخرين، وكيف يحصل التفاهم المشترك بين المتفاعلين، وكيف يتصل الفواعل في ما بينهم؟

ومعنى ذلك أن تداخل ذوات الفواعل لا يحصل بشكل منفرد أو من جانب واحد بل يتطلب حضور الآخر أولاً، وطرح أفكار وآراء يتم نقاشها ثانياً، وتبادل التفاعل بينهم ثالثاً، ومن ثم يحصل تبادل الذاوت بين الفاعل

(1) د. معن خليل عمر، نظريات معاصرة في علم الاجتماع، (الأردن: دار الشروق للنشر والتوزيع 1997) ص 260.

والحضور. وبناءً على حالة «التحلّل الذاتي» طرح «شوتز» مفهوماً آخر في نظريته وهو «النمذجة» أي نمذجة سلوك الناس الذين يتفاعل معهم ويتحلّل ذواتهم. وبهذه الكيفية تكون «النمذجة» ممثلة لحكم ذاتي يتضمن معايير ذاتية - اجتماعية تعكس تأثيرات المحيط الاجتماعي.

ومن خلال التحلل الذاتي يستطيع الفاعل تشكيل نموذج فردي اجتماعي يضم صفات المتفاعلة معه يختزل فيه سيرته الذاتية أو سماته الشخصانيّة أو نمط تفكيره بصفة عامة وشاملة تغطي أغلب صفاته السلوكيّة أو الفكرية الظاهرية والباطنة. كأن يسمّيه بأنه «طيب القلب» أو «غليظ القلب» أو «حسود» أو «عبيط» أو «كريم النفس» أو «لئيم» أو «ثرثار»... الخ[1].

(1) المصدر السابق. ص 246 - 247.

فينومينولوجيا الحياة اليوميّة

يعرّف شوتز عالم الحياة اليومية بأنه عالم ما بين الذوات الإنسانية. فالعالم ليس حكراً على أحد، بل هو قسمة مشتركة بين الآخرين إنه من الفاعلين بينهم تفاعل مستمر، حتى أن وجودهم يؤثر على تطور ذواتهم. يصبح الواقع الاجتماعي حاصل جمع كل الأشياء ومجريات الأمور التي تحدث داخل العالم الاجتماعي. فهذا العالم يبنى على علاقات اجتماعيّة تستوعب العديد من أنماط الاتصال، ويتعين على كل فرد أن يحس وأن يعطي لأفعال الآخرين معنى ما وهذا لا يتأتى إلاّ بوجود المعرفة والفهم المتداول والمشترك بين الجميع.

وهكذا نجد أن في الوقت الذي حاول فيه العالم هوسرل أن ينفي الوعي من كل العناصر الأمبيريقيّة نجد شوتز يبدأ من التجارب والخبرات أي من دنيا الحياة اليوميّة، ومن الأفعال الاجتماعية المألوفة للأفراد العاديين. فالمعرفة التي يشير إليها شوتز تقوم على التجربة والخبرة الفردية، وتصبح على مرّ الزمن أكثر رسوخاً وتحجراً داخل ثقافة عالم الحياة، وتتواصل من خلال اللغة[1].

ويؤكد شوتز على موضوع البناء الاجتماعي وتقسيم العمل وتباين الأدوار في الحياة اليوميّة، وفي ذلك يقول «يدخل كل إنسان في علاقات مع الآخرين، وبذلك يصبح عضواً في بناء اجتماعي قائم بالفعل. ومعنى ذلك أن البناء سابق في وجوده على الفرد، ولكل بناء اجتماعي شامل مجموعة من

(1) آلان سوينجوود، مصدر سابق. ص 339.

الملامح البنائية كالعلاقات القرابيّة وجماعات العمر، فضلاً عن تقسيم العمل والتباين طبقاً للمهن. ويحكم البناء الاجتماعي ضرباً من توازن السلطة. فالقادة هم الذين يتولون مهام التوجيه، مما يؤدي إلى ظهور سلطات متدرجة داخل المجتمع»[1].

ويحدّد شوتز أربعة عوالم اجتماعية متميزة بدرجة وضوحها وبدايتها المباشرة، حيث لا تحتاج إلى برهان أو سند، بيد أنها مختلفة بعضها عن بعض لأنها مستخلصة من ظروف وفترات زمنية خاصة بها وهي ما يلي:

1 ـ عالم الخبرة المباشرة: وهي مستخلصة من الواقع الحيّ من خلال الاتصال المواجهي (وجهاً لوجه)، حيث يدرك المتقابلان أحدهما الآخر، ويشتركان بمشاعر وأحاسيس وأفكار واحدة أو متشابهة. فتتبلور عندهما علاقة «النحن» التي تغذي خبرات كل منهما. لذا تكون خبرة مباشرة وقريبة المدى.

2 ـ عالم الخبرة غير المباشرة: والمستخلصة من الواقع البعيد زمنياً أو عبر وسائط بشرية أو غير بشرية (سلكيّة أو لاسلكيّة) حيث تقلّل من تدخل المتفاعلين في مشاعر وأحاسيس مشتركة.

3 ـ عالم الإرث المخلوف: والمستخلص من الزمن البعيد. فهو من بواقي الحالات الماضوية الناقصة في معرفتها الجزئية أو العناصر الدقيقة. وبمعنى آخر فإنها تمثل خصوصية تراثية ولا تمثل معايير الحاضر، ولا يمكن قياسها بمقاييس الحاضر[2].

ويرى شوتز بأن الواقع الاجتماعي يتغيّر ويتعدّل من خلال أفعال

---

(1) د. السيد الحسيني، نحو نظرية اجتماعية نقدية، مصدر سابق. ص 202 ـ 253.

(2) د. معن خليل عمر، نظريات معاصرة في علم الاجتماع، مصدر سابق. ص 252 ـ 253.

الأفراد، تماماً كما تخضع هذه الأفعال ـ بدورها ـ لتأثير الواقع الاجتماعي، أي أن هناك علاقة جدليّة تربط الواقع الاجتماعي بالأفعال الاجتماعيّة. فالواقع الاجتماعي يتكون من مجالات مختلفة ومستقلة عن بعضها البعض، كمجالات الحياة اليوميّة، ومجالات الإعلام، ومجالات العلم، وفي كل من هذه المجالات نجد إطاراً محدداً ومحدوداً من الخبرات الحياتيّة، التي تكون ضمن البناء الاجتماعي، الذي يضم نشاطات الحياة اليوميّة التي يمارسها الأفراد.

ويمكن القول بأن شوتز في تأكيده على دور «الحياة اليوميّة» في تشكيل البناء الاجتماعي، إنما يقترب كثيراً من علم الاجتماع «الأمبيريقي».

المعرفة والقوة عند شوتز

إذا كان شوتز في نظريته «فينومينولوجية الحياة اليومية» يؤكد على ضرورة فهم أفعال الآخرين، فإنه يصر على إعطاء المعرفة العامة الشائعة بعداً تاريخياً وسياسياً واجتماعياً من خلال أفكاره الآتية[1]:

1 ـ المعرفة العامة الشائعة تتألف من نسق معرفي عام يكوّن من خلاله الفاعل مقولاته الفكرية، التي تساعد على تحديد معالم البيئة الاجتماعية التي يعيش فيها حيث يتألف النسق المعرفي من ثلاثة جوانب أساسية: الأول، تبادل المنظورات التي تشير إلى كل ما هو شائع ومألوف لكل الناس، والثاني: النشأة الاجتماعية للمعرفة، والثالث: التوزيع الاجتماعي للمعرفة.

2 ـ إن المعرفة تكتسب وجوداً تاريخياً، ثم ما تلبث أن تنتقل من خلال أساليب أو وسائل عامة كلغة الحياة اليومية. ومعنى ذلك أن المعرفة تنشأ

(1) د. السيد الحسيني، نحو نظرية اجتماعية نقدية، مصدر سابق. ص 256 ـ 257.

نشأة تاريخية وتكتسب وجودها الحقيقي من خلال مجموعة من العمليات التاريخية.

3 ـ أن «المعرفة المتبادلة» تتوزع اجتماعياً توزيعاً متبايناً، مما يؤدي إلى ظهور فئة من الناس تتميز بالمبادىء الفكرية في مقابل فئة أخرى تتخذ دور الاستجابة الفكرية.

4 ـ يعتقد شوتز بوجود علاقة بين المعرفة والقوة والسلطة في المجتمع الحديث. فالمعرفة تتحول في نهاية الأمر إلى سلاح يستخدم في المواقف الفعلية.

4 ـ خلاصة ونتائج

يمكن تلخيص الاتجاه الظاهراتية بالنقاط الآتية:

أولاً: يمكن إرجاع الأصول الفكرية لنظرية الظاهراتية إلى فلسفة الظواهر التي قدمها إدموند هوسرل، واعتباره رائداً لها. وقد استعمل مصطلح (الفينومينولوجية) لأول مرة من قبله. كما أن ظهور هذه النظرية في الستينات تعكس حقيقة الواقع من خلال التحولات الفكرية والاقتصادية التي شهدتها المجتمعات الأوربية والأمريكية آنذاك، وحاجتها إلى نظرية اجتماعية تعبّر عن مشكلات الإنسان ووجوده.

ثانياً: ناقش «هوسرل» موضوعات عديدة في نظريته الفينومينولوجية أبرزها الظواهر والخبرات. فالظواهر عنده تشكل خبرات قصدية موجهة للأفعال العقلية. وهو يرى بأن على الباحث أن يصف «ماهيات» الظواهر من خلال إدراكه وشعوره أو من خلال خبرته القصدية. أما الخبرات الواعية، فإنه يرى ضرورة دراستها من خلال الفينومينولوجيا، أي محاولة الوصول إلى أعماق الخبرات الإنسانية باستخدام أسلوب منهجي محدّد وهو «الرد الفينومينولوجي» بقصد وصف الخبرات الخالصة.

ثالثاً: أضاف العالم شوتز الشيء الكثير للنظرية الفينومينولوجية من خلال موضوعات عديدة أبرزها: الواقع الاجتماعي، والتفاعل، والمعرفة والقوة أو السلطة. وتركّز الظاهراتية عنده، على مفهومها الأكبر «التحلل الذاتي» أو «الذوات المتداخلة» والتي تؤكد على أن تداخل ذوات الفواعل لا يحصل بشكل منفرد أو من جانب واحد. وإنما يتطلب حضور الآخر أولاً، وطرح أفكار وآراء يتم نقاشها ثانياً. ومن ثم يحصل تبادل الذوات بين الفاعل

والحضور. كما يرى بأن المعرفة تمثل عمقاً تاريخياً واجتماعياً وسياسياً من شأنها تعميق التفاعل في الحياة اليومية.

رابعاً: يمكن استنتاج حقيقتين من النظرية الظاهراتية:

1 ـ أنها تعتبر تياراً نقدياً لعلم الاجتماع الكلاسيكي أو المحافظ على أساس أن علم الاجتماع في صورته المحافظة المرتبطة بمشكلة النظام قد سلخ نفسه من الواقع وافترض فجوة بين الباحث وموضوع دراسته عندما أكد على ضرورة النظر إلى ظواهر هذا الواقع على أنها أشياء.

2 ـ أنها امتداد لبعض القضايا التي طورها ماكس ڤيبر كالأنماط المثالية والمعنى الذاتي للأفعال[1].

(1) د. أحمد زايد، علم الاجتماع بين الاتجاهات الكلاسيكية والنقدية، مصدر سابق، ص 304.

نماذج أسئلة الفصل السابع

س1 : تتبع تطور اتجاه الظاهراتية (الفينومينولوجيا) موضحاً من خلاله أفكار ومساهمات الرواد الأوائل لهذا الاتجاه.

س2 : أذكر بنقاط أهم الموضوعات التي تناولتها النظرية الاجتماعية الظاهراتية.

س3 : ما هي موضوعات نظرية أدموند هوسرل الفينومينولوجية. حدّد بنقاط أبرز أفكار نظريته الاجتماعية.

س4 : ما هي الافتراضات التي قامت عليها نظرية الفرد شوتز. عدّد بنقاط هذه الافتراضات.

س5 : اشرح بالتفصيل نظرية شوتز التي تتناول موضوع فينومينولوجيا الحياة اليوميّة.

س6 : يحدّد العالم شوتز أربعة عوالم اجتماعية لنظرية الفينومينولوجية. والمستخلصة من ظروف وفترات زمنيّة خاصة بها. أوضح هذه العوالم الأربعة بنقاط مع الشرح.

س7 : أضاف شوتز لنظريته الفينومينولوجية عناصر جديدة كالمعرفة والقوة. عدّد عناصر المعرفة بنقاط مركزة.

س8 : ما هي الخلاصة العامة التي استنتجتها من النظرية الظاهراتية من خلال أفكار هوسرل وشوتز. موضحاً الاستنتاجات العامة حول النظرية الظاهراتيّة.